معنى التصوف عند الغزالى

للاستاذ فوزى عرفه

يحمل التصوف عند أبى حامد ابن محمد بن محمد بن أحمد الغزالى عدة صفات :

أولها :

أنه وضعه فى أعلى العلوم وجعله أشرفها وأفضلها . وهو يفسر ذلك فى كتابه « إحياء علوم الدين » إذ يرى أن الفضيلة مأخوذة من الفضل وهو الزيادة . فإذا تشارك شيئان فى أمر واختص أحدهما بمزيد تعال فَضَله وله الفضل عليه مهما كانت زيادته فيما هو كمال ذلك الشىء .

والتصوف فى نظره أفضل العلوم على المعنى السابق . أى أنه يحوى هذه العلوم ثم يزيد عليها زيادة وهى علم القلب . لأنه يقسم العلوم إلى قسمين : علم الظاهر وعلم الباطن ، أما علم الظاهر : فهو المعلق بالأحكام الظاهرة . وأما علم الباطن : فيتخذ له وسيلة وهى الأحكام الظاهرة ، أو علم الظاهر ، ثم يزيد عليه علم ، القلب فيكون أفضل من سابقه وأعلى فى المرتبة من باب آخر ، لأنه فى القمة بعد ماسبقه من العلوم .

هذه النظرية فى ترتيب العلوم تكاد تكون خاصة بالصوفية دون غيرهم من المتعلقين بالعلوم ، وتكاد هذه النظرية ترجع إلى الغزالى دون غيره من المتعلقين بعلم التصوف ، ذلك لأنه كان قد وجد فى عصر انتشر فيه علم الكلام وازدهرت الفلسفة ، وأوتى من القدرة والإحاطة وسعة الاطلاع مازوده بمعرفة هذه العلوم جميعا ، ثم جاوزها إلى غيرها من العلوم الباطنة فأدى به ذلك إلى نظرية فى ترتيب العلوم بالإضافة إلى أن التصوف أصبح عنده نظرية للمعرفة والسعادة .

وهنا يختلف الغزالى عن غيره من المتقدمين ، ذلك أنهم كانوا قد انتهو إلى قسمة علم الشريعة إلى قسمين ! علم ظاهر ، وعلم باطن ، وجعلوا الظاهر مقصورا على الفقه والحديث والتفسير ، وأدواته الاطلاع ، والاستذكار ، وحضور مجالس العلم ، فهو من المكاسب التى تكسب بالمواظبة والجد والتعب . وأما علم الباطن : فهو حالات تعرض

للقلب ،ومواجيد ومقامات يصعد بها السالك مدارج. وأدواته : التجافى عن دار الغرور، والإنابة إلى دار الخلود، والاستعداد للموت قبل نزوله، والإقبال على الله بكنه الهمة ، فهو من المواهب التى يهبها الله عباده الصالحين ، إذا نقت نفوسهم وصفت قلوبهم وتطهرت أرواحهم .

ذلك ما انتهى إليه التصوف قبل الغزالى من الفصل بين الفقه والتصوف مما جعل بين الفقهاء والصوفية معارضات محتدمة ،انتهت إلى جلد الحلاج وقتله. أما الغزالى : فلم ير ذلك الفصل بين التصوف والفقه ، بل رأى أن الفقه درجة من درجات التوصل إلى التصوف ، فهو بذلك يوفق بين التصوف والفقه معليا من قيمة التصوف ، دون أن يحط فى الوقت نفسه من قيمة الفقه ولا العلم على وجه العموم .

ثانيا :

يعارض الغزالى فى نفس الوقت ما كان قد ابتدر من الصوفية وما عظم أمره فيما بعد من الإعراض عن الدنيا إعراضا كاملا- نعيمها وطيباتها وعلومها أيضا - كما يقول الأستاذ طه عبد الباقى سرور ، وذلك لأنه ينكر على الصوفية الشطحات التى يقسمها إلى صنفين : —

١ — الدعاوى الطويلة العريضة فى العشق مع الله تعالى، والوصال المغنى عن الأعمال الظاهرة ، حتى ينتهى قوم إلى دعوى الاتحاد ، وارتفاع الحجاب، والمشاهدة بالرؤية ،والمشافهة بالخطاب، فيقولون : قيل لنا كذا وقلنا كذا ، ويتشبهون فيه بالحسين بن منصور الحلاج ، الذى صلب لأجل إطلاقه كلمات من هذا الجنس ، ويستشهدون بقوله : أنا الحق .وبما حكى عن أبى يزيد السبطامى أنه قال : سبحانى سبحانى !! وهذا فن من الكلام عظيم ضرره فى العوام .

فهو ينكر نظرية العشق التى ظهرت عند ذو النون المصرى ، ونظرية الاتحاد والحلول التى ظهرت عند الحسين بن منصور الحلاج ،وذلك لخوفه من تأثيرها على العوام . ومن هنا يقف الغزالى موقفاً واضحاً ضد هذه الشطحات الصوفية ،إذ رأى فيها ضرراً كبيراً على العوام ، وبعداً موغلا عن روح الإسلام [حتى ترك جماعة من من أهل الفلاحة فلاحتهم وأظهروا مثل هذه الدعاوى ؛ فإن هذا الكلام

يستلذه الطبع ؛ إذ فيـــه البطالة من الأعمال، مع تزكية النفس بدرك المقامات والأحوال ، فلا تعجز الأغبياء عن دعوى ذلك لأنفسهم ولا عن تلقف كلمات مخبطة مزخرفة ، ومهما أنكر عليهم ذلك لم يعجزوا عن أن يقولوا : هذا إنكار مصدره العلم والجدل ، والعلم حجاب . والجدل عمل النفس ، وهذا الحديث لا يلوح إلا من الباطن بمكاشفة نور الحق ، فهذا ومثله مما قد استطار فى البلاد شرره ، وعظم فى العوام ضرره، حتى أن من نطق بشىء منه فقتله أفضل فى دين الله من إحياء عشرة] وهذه النتيجة التى انتهى إليها الغزالى حتى أن قتل من يوغل فى هذه المعميات ويزين تلك الترهات ، ويتعثر لسانه بأمثال هذه الألفاظ إنما يتبين بحق أنه لم يسر فى طريق الصوفية السابقين عليه، وإنما كان علما مفردا بينهم. تفرد بخصائص تميزه عن سابقيه ، وتجعل له قيمة كبرى فى تاريخ الحياة الروحية الإسلامية .

٢ — والصنف الثانى من الشطحات، كلمات تقال وليس وراءها طائل؛ لأن قائلها لا يفهمها، أو يفهمها ولكنه لا يستطيع تفهيمها ، وكذلك تأويل أصل الكلمات، إذ يفسرون قوله تعالى (إذهب إلى فرعون إنه طغى) بأن فرعون معناه القلب ، وهو الطاغى على كل إنسان. وقوله (وألق بعصاك) أى توكل على الله واترك كل ما يشغلك عن التوكل عليه تعالى . وقول الرسول (تسحروا فإن فى السحور بركة) أى استغفروا. حتى إنهم يحرفون القرآن من أوله إلى آخره عن ظاهره . وهو يشبه فى ذلك ابن رشد الذى قصر التأويل على أضيق الحدود ، والشيخ محمد عبده الذى جعل التأويل ملجأ عندما يضيق ظاهر الآية عن قبولها بمعناها الظاهر .

وليس معنى هذا أن الغزالى ينكر التأويل إنكارا تاما ، فإنه يقول : [ولا ينبغى أن يفهم أنه يجب أن لا يفسر القرآن بالاستنباط والفكر، فإن من الآيات ما نقل فيها عن الصحابة والمفسرين خمسة معان وستة وسبعة ، ويعلم أن جميعها غير مسموع من النبى صلى الله عليه وسلم ، فإنها قد تكون متنافية لا تقبل الجمع ، فيكون ذلك مستنبطا بحسن الفهم وطول الفكر، ولهذا قال صلى الله عليه وسلم لابن عباس رضى الله عنه « اللهم فقهه فى الدين وعلمه التأويل »]

أرأيت إذن إلى ذلك الفهم الواسع والعقل الكبير الذى يطوف فى الآفاق ويتصرف إلى تحصيل العلوم ، إنه لايتبع سلفه فى غير تفكير وتدبر ، ولا يأخذ من سابقيه من غير أن يهضم ما أخذه ، بل يرى أن لعقله عليه حقا ، وأن هذا الحق ينصرف إلى النقد والتمحيص حتى ينتهى إلى رأى قد يخالف سابقيه ولاحقيه ويصبح علما يشار إليه بالبنان !!

ومن هنا انقلب التصوف عند الغزالى فى مضمونه ، فلم يعد هجرا للدنيا وتركا للذات ، بل أصبح حالة نفسية واعية متبصرة ، تذرع الآفاق وتتدبر الكون ، وتصدر الأحكام عن روية وفهم ، بعد معرفة الدين معرفة وثيقة لاتنفصل ولا تنقصم ، وهو بذلك يريد المسلم الواعى ، ولا يريد المسلم الجلف المتواكل ، أو أن صورة التصوف فى ذهنه هى صورة الرسول الكريم وأصحابه والتابعين .

عرض شامل لتقدم الإنتاج فى إقليمى الجمهورية

سينما — مسرح — مطـــاعم .. الخ

احتفظ بتذكرة الدخول فقد يسعدك الحظ بالفوز فى يانصيب السوق الأسبوعى أو فى السحب الكبير الذى سيجرى فى نهاية السوق

المواعيد من ١٠ صباحا إلى ١٠ مساء